من روائع العمارة الاسلامية في اليمن

القبة البكيرية في صنعاء

د . غازي رجب
كلية الآداب ـ جامعة بغداد
قسم الآثار

لقد اتجه العثمانيون ـ بعد قيام دولتهم وتثبيت أركانها ـ شرقا وغربا لفتح البلاد وبسط سلطانهم عليها . وقد افلحوا في اخضاع مصر والشام وبلاد الجزيرة العربية بما فيها بلاد اليمن . الا انهم عجزوا عن تثبيت سيطرتهم على اليمن وبقيت سلطتهم مهزوزة بسبب المقاومة العنيفة التي ابداها اهلها . لكن لهذا لم يمنع العثمانيين من تشجيع الفنون والعمارة في البلاد التي حكموها حتى يضمنوا بقاء بصماتهم عليها ويصبغوا بطابعهم فنونها ويؤطروا عمارتها باسلوبهم المميز في هذا المضمار . لهذا فقد ازدهر على ايديهم طراز فني متميز في معظم اجزاء امبراطوريتهم الهرمة التي دب اليها الضعف منذ نهاية القرن الثاني عشر الهجري (١٨ م) .

وقد انشيء في اليمن خلال فترة السيطرة العثمانية عليها عدد من القلاع والاسوار التي استخدمت للدفاع ، كما بنيت القصور والمساجد ومنها القبة البكرية موضوع بحثنا هذا .

بنيت هذه القبة أصلا لتكون مدرسة ومسجدا وسميت بالبكرية نسبة الى بكير اغا احد مماليك الباشا حسن واحبهم اليه[1] ، والذي شاءت له

---

١ ـ الحجري : مساجد صنعاء ص١٧ ، زبارة : ائمة اليمن بالقرن الرابع عشر ق١ ص١٤ .

الاقدار ان يسقط من فوق فرسه ويموت لحينه في ميدان قصر صنعاء ـ كما يروى ـ فرغب الباشا حسن بدفنه في المدرسة الا ان بعض خاصته اشار عليه ان يتركها مسجدا وبدفن بكير في مكان آخر خارجها فبني له قبة صغيرة الى جانبها لعلها ألغرفة ألتي يؤدي اليهاباب صغير من داخل المصلى[٢] .

وقد أقيمت القبة على مقبرة دارسه رفعت منها عظام الموتى قبل بنائها[٣] باشراف بكير نفسه[٤] سنة ١٠٠٥ هـ (١٥٩٦ م ، كما هو مدون في حنية محراب القبة .

« وفي الفتح تأريخه يلوح نورا ساطعا »

وسجله ايضا محمد بن عبدالله بن الامام شرف الدين بالشعر الاتي[٥] :

شاد الوزير جامعا يلوح نورا ساطعا

وقد اتى تاريخه لكل خير جامعا

وبنى بكير الى الجوار القبة حماما[٦] وبعض البيوت[٧] جعلها وقفا عليها .. فكانت القبة وملحقاتها من أعجب المباني التي شيدت في اليمن أثناء حكم الاتراك العثمانيين فقد توجهت اليها الانظار وكتب في جمالها ومحاسنها في القرن الرابع عشر الهجري مفاخرات ومناظرات ومفاكهات منها « رسالة الطراز المذهب فيما بين البكيرية وجوامع صنعاء ومسجد المذهب » للقاضي علي صالح بن ابي الرجال (ت ١٣٣٥هـ / ١٧٢٢م)[٨] . ويعكس بناء هذه

---

٢ ـ زبارة : ائمة اليمن ق١ ص١٤ ، يحيى غاية الاماني ق٢ ص٧٨٤ .

٣ ـ زبارة ائمة ق١ ص١٤

٤ ـ الجرافي : المقتطف من تاريخ اليمن ص٩١ ، يحيى : غاية ق٢ ص٧٦٩ .

٥ ـ الجرافي : ص٩١ ، الحجري ص١٧ .

٦ ـ الجرافي : ص٩١ ، زبارة : ائمة اليمن ق١ ص١٤ .

٧ ـ زبارة : ائمة اليمن ق١ ص١٤

٨ ـ زبارة : نشر العرف م١ ص٦٨٣ ، م٢ ص٢٢٥

القبة ضآلة تأثير الاتراك الذين حكموا اليمن منذ القرن العاشر الهجـري (١٦ م) على الفنون العمارية على الرغم من أنهم لم يألوا جهدا في سبيل تتريك هذه الفنون .

ومن أوسع الترميمات التي انجزت في هـذه القبة هي التي أمر بهـا السلطان عبدالحميد بن عبدالمجيد خان . ففي سـنة ١٢٩٨هـ / ١٨٨٠م اكمل الاتراك ترميم وتزويق المسجد[٩] وفرشه بالمفارش واضافة منبر رخامي جميل اليه وترخيم جميع صحن القبة[١٠] . وقد دون تاريخ الانتهاء على الباب الغربي للقبة هو ١٢٩٨هـ / ١٨٨٠م . وفي سـنة ١٣٠١هـ / ١٨٨٣م توفي الوالي محمد عزت باشا ودفن الى جوار القبة البكيرية وعمر على قبره وكيله ـ المتصرف احمد رشدي باشا ـ قبة شـمالي الداخل الى صـحن الجامـع من الميـدان[١١] .

وقد جرت على هذا المسـجد ترميمـات لم تخرجه عن طابعه الاصـلي واخرها كانت في السبعينات من القرن العشرين .

المدخـل

يتوسط جدار المسجد الغربي مدخل ضـخم ذو قوس منبطح يؤدي الى صحن مستطيل طوله من الشمال الى الجنوب ٥ ر ٢٤ م وعرضه ٥ ر ٢٠ وعلى واجهة المدخل الخارجية مستطيل غائر واربعة اطباق زخرفية .

ويعلوا المدخل من جهة الصحن ومن الخارج قبة نصف كروية ترتكز في كل جهة على ثلاثة عقود : الشمالي والجنوبي فيها صـغير مدبب مطـول والشرقي والغربي منها أكبر وجميعها تبدأ ببروز جميل ومبنية بصنج زوجية

---

٩ ـ زبارة : ائمة اليمن ق١ ص ١٤ Scott, In the High Yemen, p. 125.

١٠ ـ الحجري ص١٧

١١ ـ زبارة : ائمة اليمن ق١ ص ٢٠ ، الجرافي ٩٧

باللونين الاسود والابيض بالتناوب وتؤلف هذه العقود بمجموعها قاعدة مربعة طول ضلعها حوالي ٧٫٥ حول اعلاها الى مشن يحمل القبة ويعلو واجهاتها شرفات مفصصة تسعة منها في كل ضلع عدا شرفات الاركان (شكل ١ وشكل ٢) .

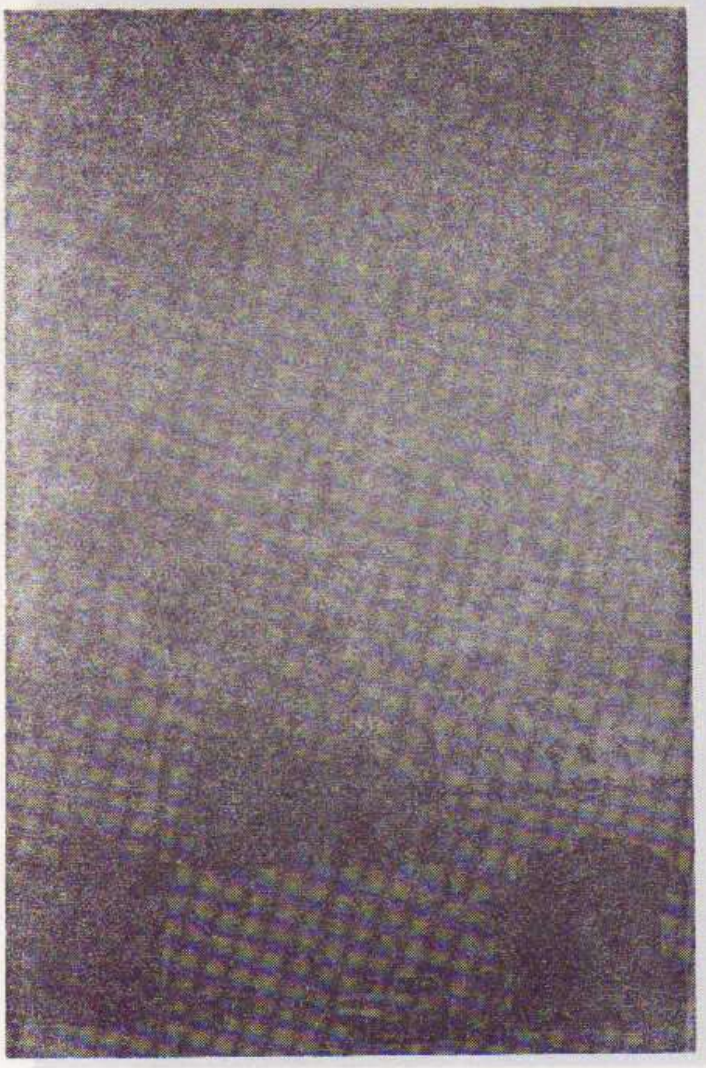

(شكل ١) المدخل من الخارج

الرواق الامـامي

يتقدم بيت الصلاة رواق كبير عرضـه حوالي ٢٠ م وعمقه حوالي ٥ر٦ متر مفتوح على الصحن بثلاثة عقود قائمة على عمودين من الحجر الاسـود يعلو كل منهما تاج كأسي •

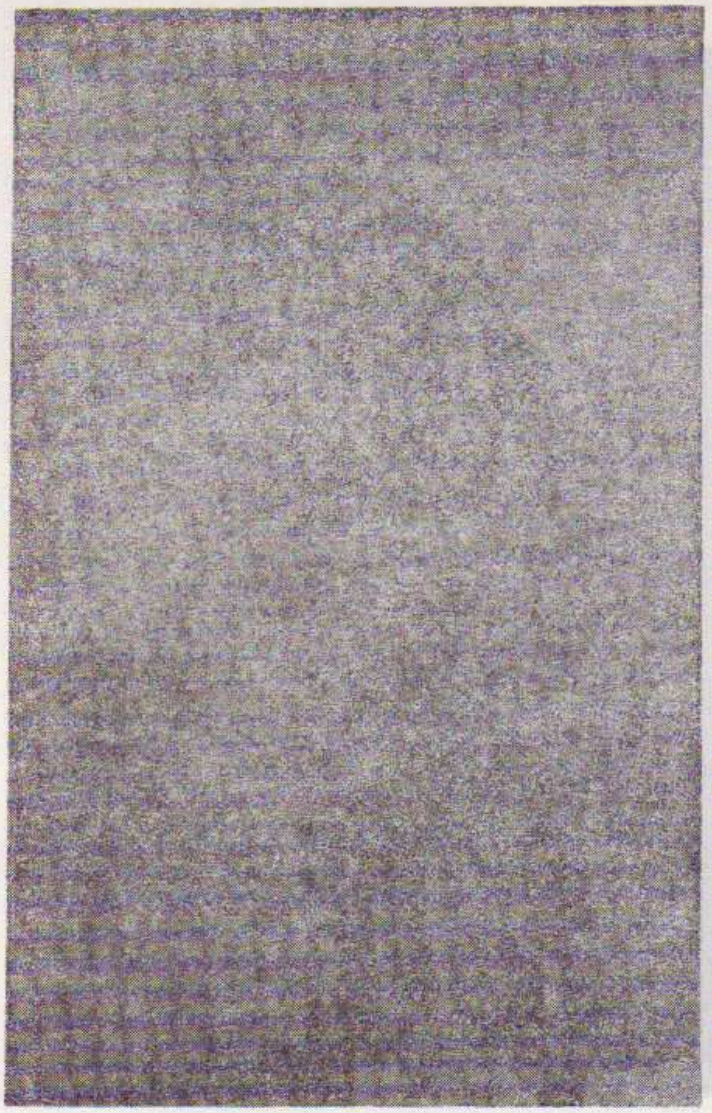

(شكل ٢) المدخل من الصحن

ويغطى سقف هذا الرواق ثلاثة قباب جميلة كسي باطنها بزخارف جصية دقيقة الحفر أجملها يغطي القبة الوسطية منها على شكل طاقات مسطحة فيهما زخارف نباتية وهندسية وكتابات (شكل ٣) .

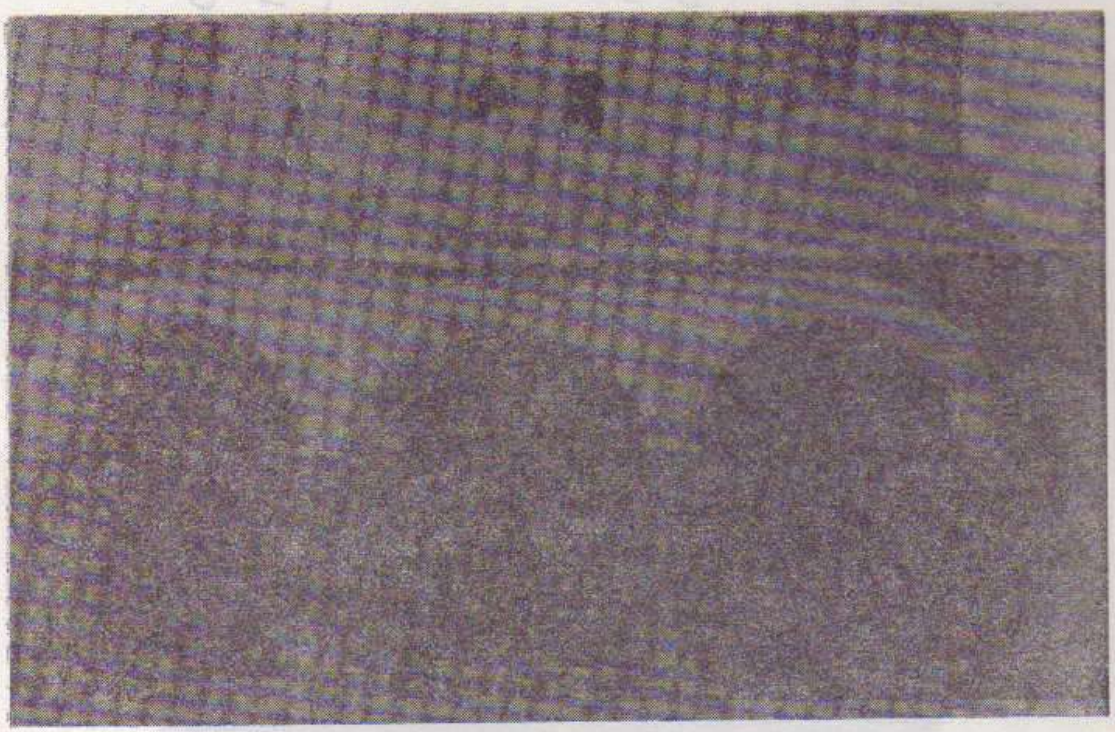

(شكل ٣) الرواق الامامي

وارضية الرواق مرتفعة تغطيها الواح الرخام ويقطعها ممرين منخفضين يؤديان الى بابي المصلى عرض كل منهما من الخارج ١ر٤٨ م ومن الداخل ٢ر٠٦ م ولكل منهما قوسان العلوي منهما مفصص مغلق يتوسطه في الباب الشرقي لوح رخامي عليه طغراء بأسم السلطان عبدالحميد وكلمة « الغازي »

الى جانبه (شكل ٤) - ويتوسط قوس الباب الغربي لوح مشابه عليه شعرا يؤرخ اتمام تعمير المسجد (شكل ٥)

ذا جامع تعميره جامع للفتح والنصر لذاك النجيب
عبدالحميد الندى سلطاننا سيف رسول الله ذاك الحبيب
لذا أتى تاريخ اتمامه نصر من الله بفتح قريب

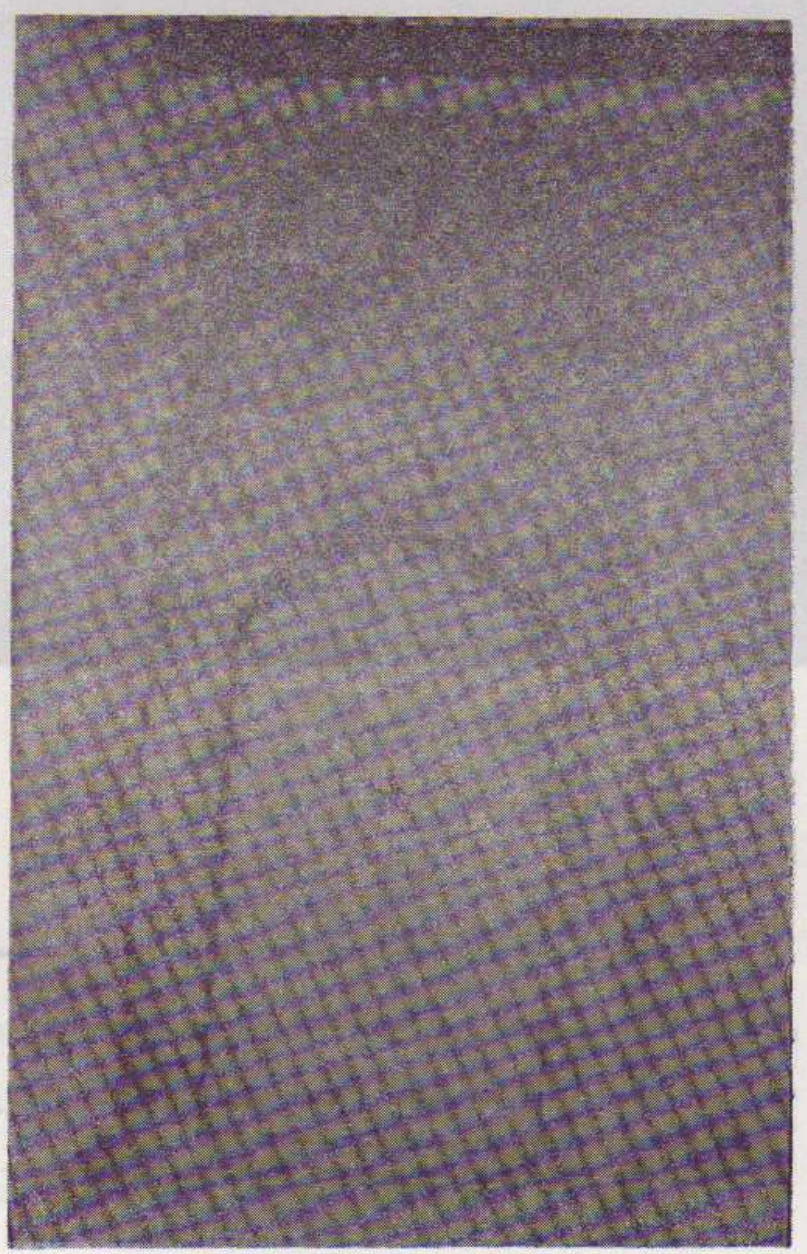

(شكل ٤) المصلى : المدخل الشرقي

ويزين هذين المدخلين من الداخل زخارف محفورة حصيرية ولجذولة وجامات متعددة الاشكال غاية في الروعة والجمال وفي اعلاها شـــرافات (شكل ٦) .

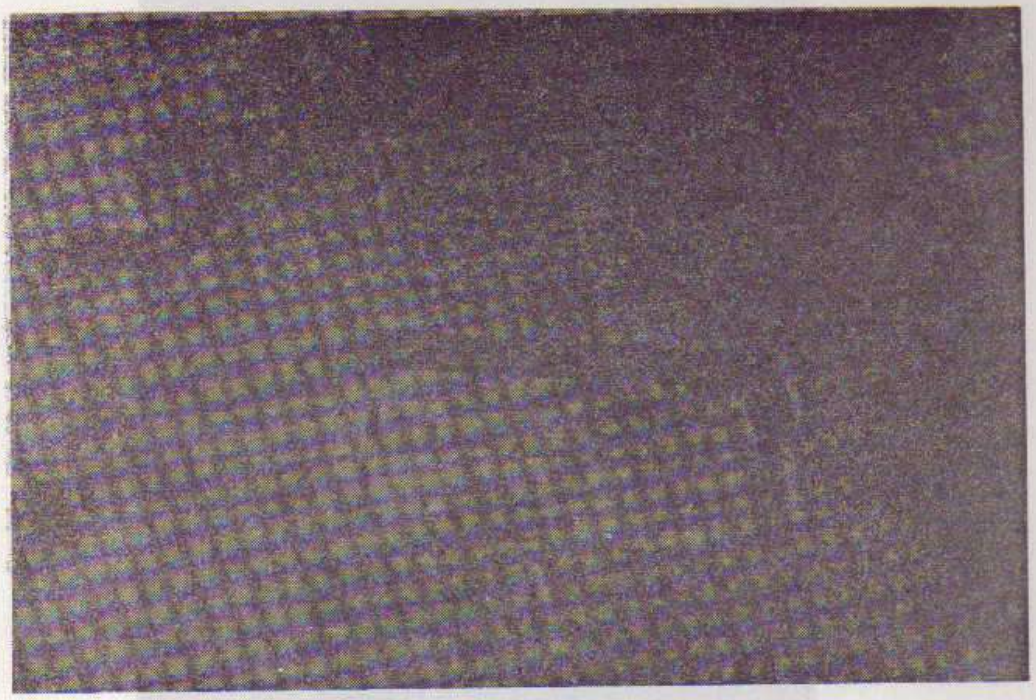

(شكل ٥) المصلى : قوس المدخل الغربي

وفي الجدار الجنوبي للمصلى أربعة شبابيك كبيرة تطل على الرواق احدها في أقصى الشرق والثاني في أقصى الغرب وشباكان في الوسط ويعلو هذه الشبابيك ومدخلي المصلى شريط عريض داخله البسملة وآية الكرسي .

وفي الجدار الشرقي لهذا الرواق باب صغير كان يؤدي الى المئذنة القريبة منه على الغالب ، اما الجدار الغربي ففيه فتحة تطل الى الضريح المجاور خارج المسجد .

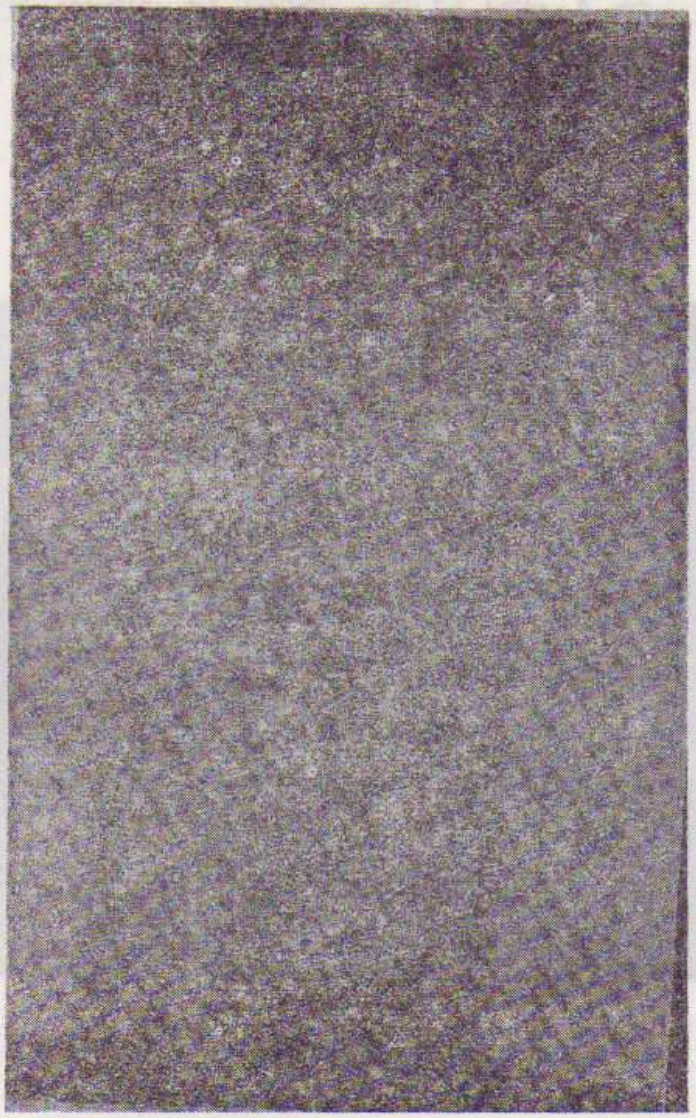

(شكل ٦) مدخل المصلى من الداخل

الابواب الخشبية لبيت الصلاة

وعلى مدخلي المصلى بابان خشبيان متشابهان يتكون كل منهما من مصراعين متشابهين وينقسم ثلاثة أقسام : العلوي منها حشوة كبيرة مستطيلة الشكل تتوسطها مطرقة معدنية ذات قاعدة مخرمة ويعلو هذه الحشوة ويدنوها شريط معدني ذو زخارف مخرمة وبارزة • أما القسم الاوسط فيتكون من حشوات صغيرة مثلثة الشكل ومعينة مجمعة الى جانب بعضها

لتكون اطباقا نجمية واخرى مثمنه جميلة .. أما القسم السفلي فشبيه بالقسم العلوي الا انه خال من الزخارف المعدنية ومن المطرقة وهذه الاقسام الثلاثة مصفحة من الداخل بلوحين خشبيين داخل اطار محفور . اما قائم الباب فهو بطول المصراع الايسر الذي يتصل به وشكله نصف اسطواني الجزء العلوي والسفلي منه مستطيل الشكل .

المصلى

والمصلى قاعة ضخمة مربعة الشكل طول ضلعها حوالي ١٧٫٢٥ م - وبواسطة حنايا ركنية كبيرة حول الجزء العلوي منها الى مثمن أقيم فوقه قبة ضخمة نصف كروية مغطاة بالقضاض يتوجها ثلاث كرات معدنية قائمة على قاعدة معدنية مضلعة ويعلو الجميع هلال معدني - شكل ٧ - .

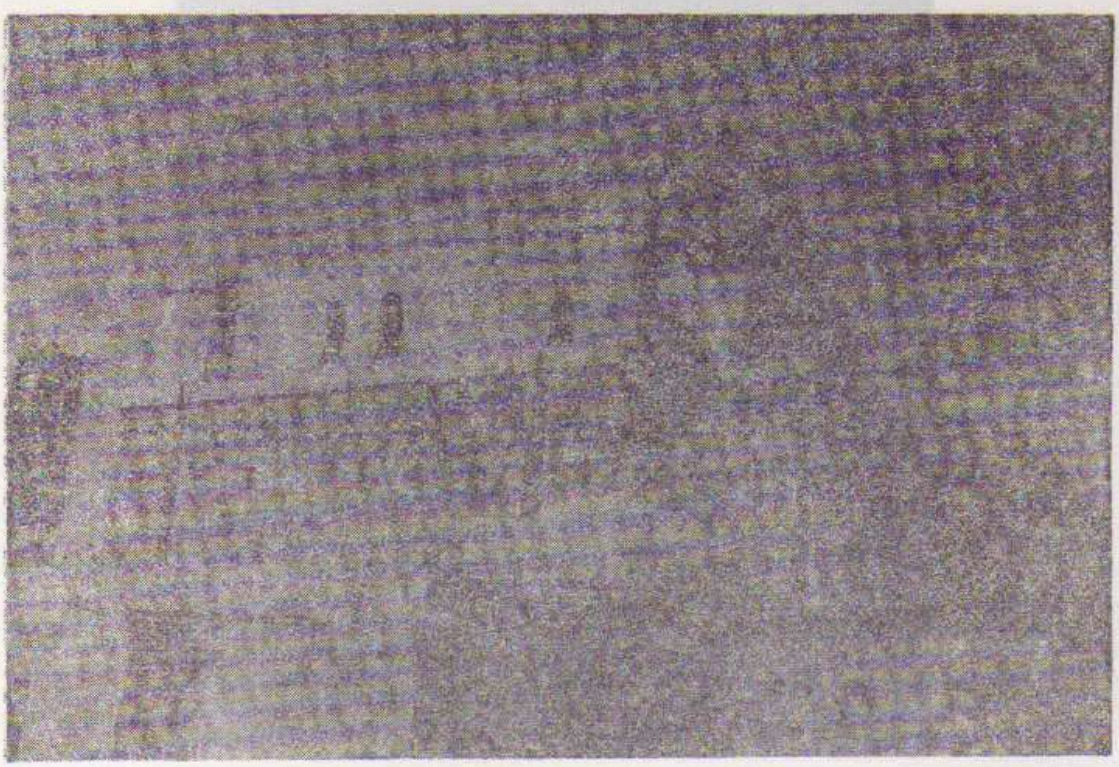

(شكل ٧) قباب المصلى من الخارج

وفي الحنايا الركنية مقرنصات زخرفية من سبعة حطات بارزة على شكل نوافذ وعقود صغيرة مزخرفة بالالوان المائية يحيطها اشرطة مسننة ويتوجها زخرفية نباتية من زهرتين متناظرتين واغصان ملتفة . والشكل العام لهذه المقرنصات ستارة مدلاة ومربوطة من الاسفل (شكل - ٨) .

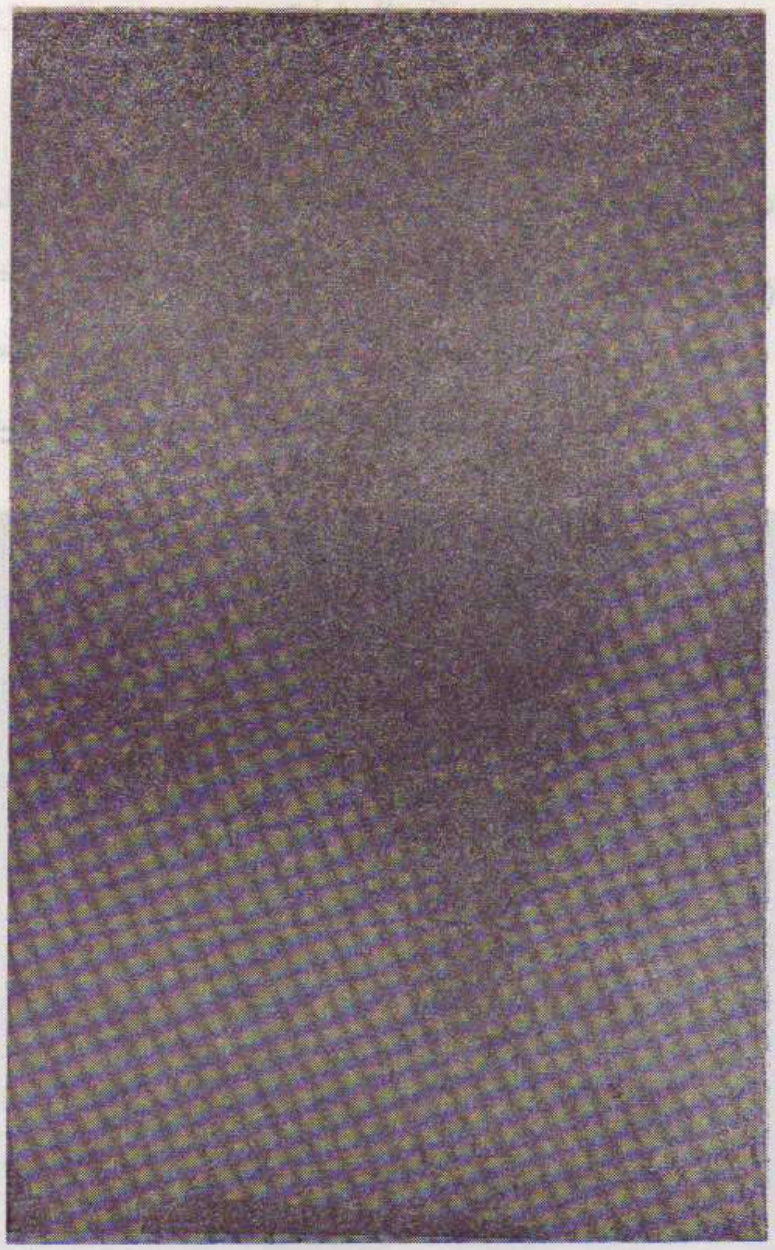

(شكل ٨) المقرنصات الركنية

وقد رسمت أقواس الحنايا الركنية بالالوان على شكل صنج متلاصقة وكذلك أقواس متناظرة على الجدران مع أعمدتها • وفوق هذه ألعقود تقوم الرقبة التي تحمل القبة وهي ذات شكل دائري من الداخل ومثمنه من الخارج في كل من اضلاعها شباكان عقداهما مدببين وكل نافذة مغطاة من الخارج بستائر خشبية (مشربيات) لا زالت اثار بعضها باقية في الجدار الغربي ومن الداخل ثبت في اعلاها ستارة جصية مخرمة مطرزة بالزجاج الملون وأسفلها الواح زجاجية كبيرة داخل اطارات خشبية من الشكل الشائع في العصر التركي العثماني ويحيط بهذه الشبابيك اطار زخرفي ورسوم بالالوان والجص ويزين المسافة بين كل شباكين وكذلك كوشات العقود زخرفة بالالوان أساسها ورقة الاكانتس وطبق دائري داخل اطار مضلع •

ويعلو الشبابيك شريط زخرفي على شكل شرافات يعلوه زخرفة رائعة تتكون من آنية جميلة قائمة على قاعدة مستطيلة تطفح بانواع الفواكه (شكل ٩) •

(شكل ٩) الاقواس المرسومة والنوافذ والاشرطة الزخرفية داخل المصلى

اما قمة القبة فيزينها جامة كبيرة نجمية الشكل وفي وسطها زهرة كبيرة داخلها كتابة بخط الثلث تتضمن البسملة وآية من القرآن الكريم ويملاء الجامة كلها زخارف نباتية متشابكة غاية في الروعة تدل على مهارة الفنان وبراعته في انجازها وفي استخدام الظل واللون لابرازها مجسمة (شكل ١٠) • وداخل العقود وفوق الباب المفتوح في الجدار الشرقي زخرفة نباتية تتكون من غصنين متقابلين بينهما زهرة كأسية كبيرة ••

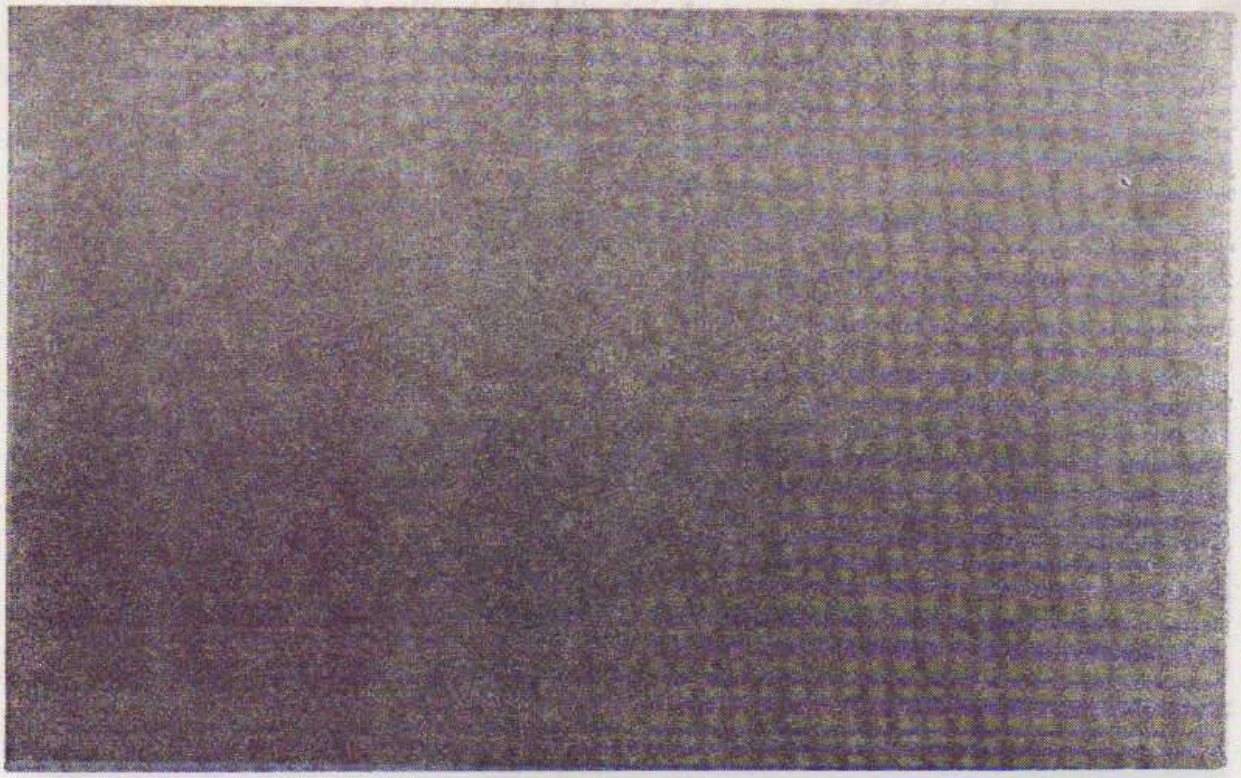

(شكل ١٠) قمة القبـــة من الداخل

ويتدلى من باطن القبة حلقات وسلاسل معدنية تحمل ثريا ضخمة تتكون من اطار معدني ذي اثني عشر ضلعا داخله اطار اخر ذي ثمانية أضلاع علق به قناديل زجاجية بينها بيض للنعام اربعة منها في الاطار المثمن وستة في الاطار الخارجي •

وفي جدران المصلى نوافذ كبيرة (٢ × ٢٥ر١م) على ارتفاع متر واحد تقريبا اثنان منها في جدار القبلة وشباكان في الجدار الغربي واربعة شبابيك في الجدران الجنوبي وشباكان آخران في الجدار الشرقي داخل الرواق الداخلي وهذه الشبابيك تتشابه مع بعضها في التخطيط العام فهي ذات فتحات مستطيلة يعلوها قوس أصم فوقه افريز مستطيل ويحيط بالجميع اطار يعلوه صف من الشرفات المتصلة به . اما التفصيلات الزخرفية ففيها تنوع واختلاف وتتكون عموما من عناصر نباتية وهندسية وكتابية اضافة الى زخرفة خاتم سليمان التي أقبل عليها الفنانون في اليمن اقبالا شديدا .

والفتحة الخارجية لهذه الشبابيك مغطاة بمشبكات معدنية ويزينها من الداخل عقود صماء متنوعة الاشكال ويغطيها بابان احدهما خشبي والاخر زجاجي والى جانب هذه الشبابيك بنيت في الجدران رفوف صغيرة تغلق بابواب خشبية صغيرة ..

الرواق الداخلي

وفي النصف الجنوبي من الجدار الشرقي للمصلى رواق عمقه ٨٥ر٥ متر ويطل على المصلى بعقدين مدببين فتحة كل منهما حوالي ٢٠ر٤ م ويرتكزان على دعامة ضخمة مثمنة الشكل يعلوها تاج مربع في كل من زواياه ثلاثة مقرنصات

وداخل هذا الرواق قوس ثالث يرتكز على الدعامة من جهة وعلى ألجدار الشرقي من جهة أخرى يقسم الرواق الى قسمين اقيم فوق كل منهما قبة بعد ان حولت قاعدتها الى مثمن بواسطة مثلث كبير في كل زاوية . ويتدلى من سقف القبة الشمالية منهما فانوس غريب كبير مثمن الشكل تعلوه رمانات صغيرة وعليه زخارف محفورة ..

وفي الزاوية الجنوبية الشرقية من هذا الرواق كرسي خشبي جميل شكله ربع دائرة لعله استخدم في الارشاد والقاء الدروس في هذا الجزء من المسجد (شكل ١١) .

(شكل ١١) الرواق الداخلي

المحـراب

ويتوسط الجدار الشمالي من المصلى محراب مجوف بديع الشكل يعتبر لوحة فنية نادرة في بنائه وزخرفته يحيطه اطار جصي قليل البروز تتوجه صورة قبة صغيرة قليلة الارتفاع على الطراز العثماني في بناء القباب رسمت بالالوان ويعلوها رسم ثلاثةكرات وهلال وأسفلها شريط عريض داخله كتاباتوزهرات اسفله في كل من زاويتي واجهة المحراب اشعة كبيرة اضافة الى أشعة دائريـة صغيرة في ألوسط .

وحنية المحراب آية في الروعة والجمال عرضها ٢٠ر٢ م على كل من جانبيها عمود ارتفاعه ٣٥ر١م تعلوهما نصف قبة مخروطة مقرنصة بخمسة حطات وتنتهي في اعلاها بنصف قبة صغيرة مضلعة .. وتبدأ هذه الحطات على شكل أقواس صغيرة كتب داخلها بعضا من أسماء الله الحسنى ويتدلى منها رسوم ستائر مربوطة الاطراف وأسفل هذه الاقواس أفريز كتابي شعري داخل جامات مربعة نصه :

وزير كريم غدا حسبا أفاض الندا
فكم عابد زاهد به ود ان يعبدا
وفي فتح كل المال ك أحيى وأفني العدا
واشراق نور القبول لهم فيه صدقا بدا
بنى جامعا للا له وطرزه عسجداً
وفي الفتح تاريخه تراهم ركعا سجدا

وأسفل هذه الابيات جامة نصها « تاريخ تعمير هذا الجامع اللامع سنة ١٢٩٧» «غازي عبدالحميد ثاني » وعلى جانبيها وأسفلها رسوم ستائر جميلة بطياتها ذات الطبيعة البيزنطية لونها عاجي وطياتها باللون الرماني الجميل ونرى ألوانا أخرى منها الازرق والذهبي والرمادي وغيرها فوق الارضية والمقرنصات والاقواس والكتابات تجعل من هذا المحراب تحفة فنية نادرة (شكل ١٢) .

ونجد عند جدار القبلة شمعتان ضخمتان كل منهما قائمة على شمعدان ضخم من البرنز الاصفر لعلهما يرجعان الى زمن السلطان عبدالحميد .

(شكل ١٢) المحـراب

المنبـــر

والى يمين المحراب منبر رخامي رائع طوله ٣ر١٠ وعرضه ١ م وارتفاعه مع السـياج المحيط بالمقعد ٥ ر ٣ م ويقوم على قاعدة مرمرية طولها ٣ر٤٥ م وتؤدي اليه عتبتان الاولى بعرض القاعدة التي تحمل المنبر والثانية بعـرض المنبر نفسه وترتفع فوق الاولى حوالي ١٠ سم (شكل ١٣) ٠

(شكل ١٣) المنبـر

وارتفاع فتحة مدخل المنبر ٧٥ر١م وعرضها ٦٨سم على كل من جانبيها قائم من الرخام نحت في زاويته الخارجية عمود مضلع صغير ويعلو القائمين تتويجة حجرية من قطعة واحدة منحوتة على شكل قوس مدبب ويعلو هـذه التتويجة حطتين من المقرنصات الجميلة تعلوها ثلاثة شرافات الوسطى منها كبيرة وفيها كتابات .

ويؤدي مدخل المنبر الى سلم من تسعة درجات ومقعد على كل من جانبيه سياج رخامي طوله ٢٫٩٥ م وعرضه ٥٩ سم مخرم باشكال سداسية تحيطها وحدات مسدسة مكونة أطباقا نجمية مكررة وعلى كل من جانبي المنبر زخرفة رئيسة تتكون من مثلث كبير قائم الزاوية يتوسطه شكل مربع ذو زخرفة مخرمة جميلة يتوسطها قبة بارزة مضلعة يزين قمتها زهره كبيرة (شكل ١٤) وبناء المنبر مجوف وذلك واضح من خلال الزخارف المخرمة ومن البابين الصغيرين المفتوحين في جانبيه وارتفاع كل منهما ١٫٤٤ م وعرضه ٤٤٫٥ سم يعلوه قوس مدبب صغير يرتكز على قائم حجري في كل من جانبيه .

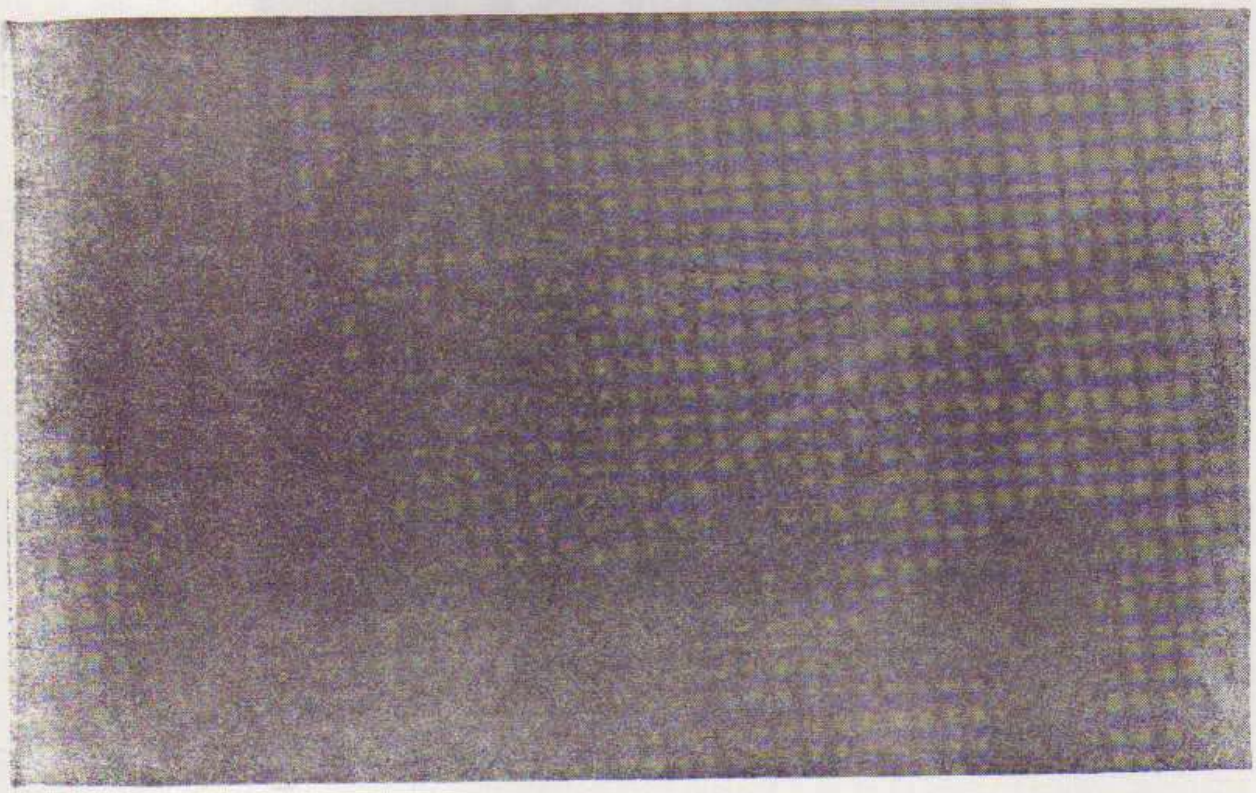

(شكل ١٤) جانب المنبر

ويعلو مقعد المنبر قبة رخامية مثمنة الاضلاع مخروطية مدببة شبيهة بقمم المآذن العثمانية وهي غاية في الجمال عليها كتابات نسخية بأسماء الله

الحسنى وزخارف هندسية وتتوجها كرة معدنية وهلال وهي قائمة على أربعة عقود صغيرة مدببة محمولة على اعمدة صغيرة مثمنة الشكل ارتفاع كل منها متر واحد ـ عدا تاجه وقاعدته ـ ويحيط بأسفل القبة شرافات عليها زخارف محفورة رائعة .

وعلى مدخل المنبر باب خشبي رائع جدا مغطى بالزخارف ويتكون من مصراعين بينهما قائم خشبي يتصل بالمصراع الايسر وكل من المصراعين يتكون من ثلاثة حشوات الوسطية منها مستطيلة يعلوها ويدنوها حشوة مربعة ..

والحشوة المربعة زينت زواياها بعقد ذو ثلاثة فصوص وفي وسطها نجمة ثمانية يحيطها زهرات مرسومة باللون الذهبي على أرضية يغلب عليها اللون الاخضر الفاتح ، أما الحشوات المستطيلة فيزين اعلاها واسفلها قوس مفصص تتوسطها زهرة اللوتس وتغطيها زخارف شبيهة بزخارف الحشوات المربعة . ويحيط بهذه الحشوات اطارات عليها زخارف نباتية على أرضية ذهبية داكنة ويتصل بالمصراع الايسر للباب قائم خشبي جميل مغطى بالزخارف الدقيقة .

وزخارف هذا الباب كلها مدهونة بطريقة اللاكية (اللك) التي ازدهرت في ايران بين القرنين السادس عشر والثامن عشر ونجد مثالا طيبا لهذا الاسلوب في باب قصر جهل ستون في اصفهان يرجع الى نهاية القرن السادس عشر او بداية القرن السابع عشر[1] وقد يغطى الخشب بطبقة رقيقة من الجص تزخرف بالالوان المائية ثم تغطى بطبقة من هذه المادة لحمايته من التلف واكسابه لمعانا جميلا[2] شكل ـ ١٥) .

---

(١) زكي محمد حسن : اطلس الفنون الزخرفية شكل ٣٩٦ .

٢ ـ مرزوق : الفنون الزخرفة الاسلامية في العصر العثماني ص١٦٥ و ص٢١٤